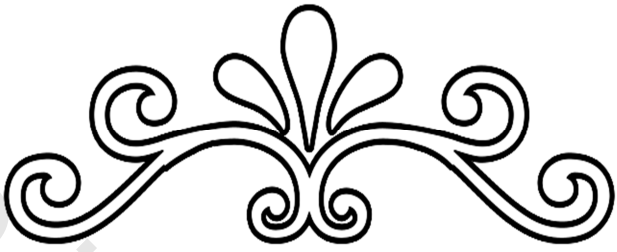

الباب السابع

الأمل في أمَّة الإسلام

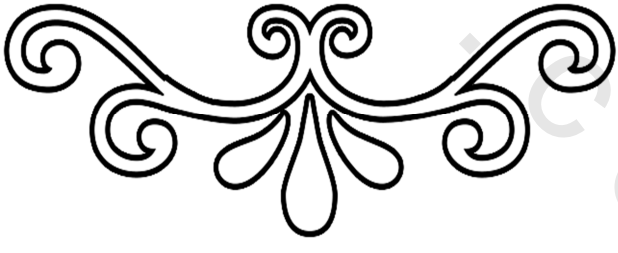

obeikandl.com

obeikandl.com

هذه الأمَّة ولَّادة بعلمائها ومفكِّريها وساستها وقادتها على مدار التاريخ، فهل جفّ رحم هذه الأمَّة، أم أصابها العُقْم؟!

وخُذ على سبيل المثال ما قاله **كاربنسكي:** «إن الخدمات التي أدَّاها العرب للعلوم غير مقدَّرة حقَّ قدرها من المؤرِّخين، وإن البحوث الحديثة قد دلَّت على عِظَمِ الدَّيْنِ الذي علينا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم، بينما كانت أوربا غارقة في ظلمات القرون الوُسطى، والعرب لم يقتصروا على نقل علم الإغريق بل زادوا عليها، وقاموا بإضافات هامَّة في ميادين مختلفة».

لقد أدرك الغربيُّون فضل العلماء العرب، وكانت الجامعات الإسلاميَّة في الشرق مَعْقِدَ آمالهم وكعبةَ قُصَّادِهِمْ، وكان علماء المسلمين في تلك الجامعات يرحبُّون بضيوفهم وتلاميذهم، وأخذوا ينقلون هذه الذخائر العلميَّة، ويترجمون الكتب العربيَّة إلى اللاتينيَّة.

جاء في «مقدِّمة أحد كتب الكيمياء»: «إنكم يا معشرَ اللاتينيِّين لا تعرفون بعد ما هي الكيمياء، ولا ما تراكيبها وأصولها، وسترون ذلك مشروحًا في هذا الكتاب الذي ننقله عن العربيَّة».

لقد كان العلماء العرب متحلِّين بالإسلام، ومتسلِّحين بالإيمان، مما جعلهم متحلِّين أغلب الأمر بحميد الصفات، وجميل الخلال، من صبر ومثابرة، وعِفَّةٍ وبُعْدٍ عن الصغائر، وترفُّعٍ عن الدَّنايا، وانكباب منقطع النظير على العمل في جدٍّ صارم، مع زهد في الترف والمال والسلطان.

وهذا هو التفسير الوحيد لهذا الإنتاج الرائع الضخم الذي يُعرَفون به بين علماء العالم، والذي يجعلهم أقرانًا أكْفاءَ لأعاظِمِ العُلماء المعدودين في العالم كلِّه على مَرِّ العصوروالدهور.

❁❁❁

يقول «**سارتون**» عن «**ابن الهيثم العالم العربي المسلم**»: «إنه أكبر عالم طبيعيٍّ مسلم، ومِنْ أكبر المشتغلين بعلم المناظر (الضوء) في جميع الأزمان، لقد كانَ أساس الأخلاق عند «**ابن الهيثم**» العربي المصري إيثار الحق، لا الميل مع الهوى، إنه خُلُق العالم الفاضل. ألسنا نرى أنه مَثَلٌ يُحتَذَى به بعد عصره بنحو ألفٍ مِنَ الأعوام».

وهذا «**البيروني**» الذي تميَّز بعقليَّة نادرة المثال نستطيع أن نضعها في مصافٍّ أرقَى العقليَّات العلميَّة في الوقت الحاضر.

فهو في الفلك فلكيٌّ ممتاز بشهادة علماء الفَلَك مِنَ الفِرِنْجة والعرب، وهو في الجيولوجيا جيولوجيٌّ ممتاز بشهادة الجيولوجيِّين المعاصرين، وهو في التاريخ مؤرِّخٌ محقِّق موثق، واسع الاطِّلاع، شامل المعرفة، قادر على الاستقراء والاستنتاج.

هذه أمثلة مِنَ التاريخ. وفي العصر الحديث لا يمكن أنْ ننسى علماء الذَّرَّة والفضاء والكيمياء والطبيعة والطبِّ، وهم كثيرون نحتاج إلى صفحات لذِكْرِ أسمائهم؛ مما يدل على أنَّ هذه الأمَّة لا ولنْ يصيبها العُقْم أبدًا، تجد الآلاف مِنَ العلماء والمخترعين الذين غيَّروا وجه العلم الحديث في أوروبا والعالم، وفي غيرهم مِنَ البلاد الإسلاميَّة الأخرى.

وأحِبُّ أنْ أَذْكر نموذجًا مِنْ نظم الحكم أيام الخلافة الراشدة، مما يُسهِّل علينا أنْ نضع لنا في هذا العصر نموذجًا يتلاءم ويتماشَى مع هذا العصر، مع المحافظة على عقيدتنا وهُوِيَّتِنا، وأخلاقنا، وعاداتنا وتقاليدنا.

❁ ❁ ❁

*** من نظم الحضارة الإسلاميَّة:**

١- الخلافة: وتعني: حكومة راشدة رشيدة تقوم على قواعد مِنَ الكتاب والسُّنَّة.

وهي تمثل: خليفة المسلمين، يعاوِنه وزراء، وقضاة، وقُوَّاد، ونُوَّاب، ومستشارون، فهو نظام سياسيٌّ متكامل.

ومن أبرز ملامحها:

◘ **الإمامة:** راجع في ذلك كتاب الإمام ابن حزم «**الفصل في الملل والأهواء والنحل**»، وكتاب الإمام أبي الحسن الماوردي في كتابه «**الأحكام السلطانيَّة**».

وتم تحديد واجبات الإمام فيما يأتي:

١- حِفْظُ الدِّينِ عَلَى أُصُولِهِ الْمُسْتَقِرَّةِ.

٢- تَنْفِيذُ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَشَاجِرِينَ، وَقَطْعُ الْخِصَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ.

٣- حِمَايَةُ الْبَيْضَةِ، وَالذَّبُّ عَنِ الْحَرِيمِ؛ لِيَتَصَرَّفَ النَّاسُ فِي الْمَعَايِشِ.

٤- إِقَامَةُ الْحُدُودِ؛ لِتُصَانَ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَتُحْفَظَ حُقُوقُ عِبَادِهِ.

٥- تَحْصِينُ الثُّغُورِ بِالْعُدَّةِ الْمَانِعَةِ، وَالْقُوَّةِ الدَّافِعَةِ.

٦- جِهَادُ مَنْ عَانَدَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ الدَّعْوَةِ حَتَّى يُسْلِمَ، أَوْ يَدْخُلَ فِي الذِّمَّةِ.

٧- جِبَايَةُ الْفَيْءِ وَالصَّدَقَاتِ، وتَقْدِيرُ الْعَطَايَا، وَمَا يَسْتَحِقُّ فِي بَيْتِ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْتِيرٍ.

٨- اخْتِيارُ الوُلاةِ الأُمَناءِ، ومُباشَرَةُ أمورِ الأمَّة، والقيامُ على مَصالِحِها.

◘ **البيعة:** وذلك حرصًا على وحدة الأمَّة، وخوفًا من انشقاقها أو فتنتها.

◘ **الشُّورَى:** وهي التي سبقت النظمَ الديمقراطيَّةَ الحديثةَ شكلًا (الديكتاتوريَّة مضمونًا)، وذلك فيما يتعلَّق بنظام الحكم وسياسة الأمَّة، وكانت الخلافة الإسلاميَّة نموذجًا رائعًا من المثاليَّة والتطوير، وشتَّان بين الشُّورَى والديمقراطيَّة الآن:

- **فالشُّورَى** في الإسلام لا تعرِف إلَّا وحدة الأمَّة وتماثلها، **والديمقراطيَّة** تعمل على تفرقة الأمَّة وتشعُّبها فرقًا وأحزابًا.

- **الشُّورَى** في الإسلام لا تسمح بكِيان إلحاديٍّ شيوعيٍّ يعمل ويتجمَّع ويخرِّب، أمَّا **الديمقراطيَّة** فهي تسمح بمثل هذه الأحزاب، وبجميع الأفكار الشاذة والمنحرفة عن الهدى والفطرة والمصلحة.

obeikandl.com

- **الشُّورَى** لا تسمح بالرِّبا أو الاحتكار أو الاستغلال، وتشجِّع على الزَّكوَات والإنفاق، أمَّا **الديمقراطيَّة الرأسماليَّة** فهي على النقيض تمامًا. وغير ذلك كثير.

٢- الوزارة: وهي واحدة من النظُم السياسيَّة الرئيسيَّة في الإسلام، وقد عرَّفها ابن خُلدون بقوله: «**هي أمُّ الخُطط السلطانيَّة والرتب الملوكيَّة، لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة**»(١).

واسمها مأخوذ مِن: الوِزْرِ وهو الثُّقل؛ لأنَّ الوزير يحمل عن الملك أعباءَه وأثقالَه، **وقيل:** اسمها مأخوذ من الوَزَرِ وهو الملجأ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعرفته، **وقيل:** إنَّ اسمها مشتقٌّ مِنَ الأَزْرِ، وهو الظهر لأنَّ الملك يقوَى بوزيره كقوة البدن بالظهر.

● وقد اتخذ رسول الله ﷺ الوُزراء من رجاله وصحابته، فكانَ وزيراه: أبو بكر وعُمَر رضي الله عنهما. كما اتَّخذ أبو بكرٍ عُمَرَ وزيرًا له، وثنَّى بعثمانَ بنِ عفَّانَ، وعليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وظهرت الوزارة في الإسلام انطلاقًا من المشاركة في تحمل المسئوليَّة وعدم الاستبداد.

وكانت الوزارة على دَرَجَيْنِ: **الأول:** وزارة التفويض: وتجمع بين السَّيف والقلم، **والثاني:** وزارة التنفيذ: وتختصُّ بالرأي والحزم.

❁❁❁

● الأسس والآداب التي تقوم عليها الوزارة هي:

(الدِّين، الكفاءة، العدل في الأقوال والفعال، الوفاء بالوعد والوعيد، والجد والحق والصدق).

يقول **الماورديُّ** موصِيًا الوزيرَ: «فاجعل الدِّينَ قائدَكَ، والحقَّ رائدَك، يذلَّ لك كل صعب، ويتسهَّل عليك كل خَطب، لأن للدِّين أنصارًا، وللحقِّ أعوانًا...، وللدين سلطانٌ قد انقادت إليه إمامته، واستقرت عليه دِعامته، فاجعله ظهيرًا لك في أمورك،

---

(١) «مقدمه ابن خلدون»، ص (٦٠٣).

وعونًا لك على تدبيرك، تجد من القلوب خشوعًا، ومن النفوس خضوعًا، فما اعتزَت مملكة إليه إلَّا صالت، ولا تحقَّقت بشعاره إلَّا طالت، وفي الحديث: **{ مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ المسْلِمينَ أَعْظَمَ أجرًا مِنْ وَزِيرٍ صَالِح مَعَ إِمَامٍ يُطيعه ويَأْمُره بِذَاتِ اللهِ تَعَالى }**[(١)].

ومنها العدل: حتى يَنْقاد الناس إلى طاعته، ويكفُّوا عن معصيته، فالعدل استثمار دائم، والجور استئصال منقطع، والوزير في الحقوق سفير مؤتَمَن، وكفيل مرتَهَن، عليه غُرمها ولغيره غُنمها. ثمَّ العدل في الأقوال: فعليه ألَّا يخاطِب الفاضل بخطاب المفضول، ولا العالم بخطاب الجهول، والعدل في الأفعال: فلا يعاقِب إلَّا على ذنب، ولا يعفو إلَّا عن إنابة، وعلى الوزير أنْ يفي بوعده ووعيده، فالوفاء بالعهد حق يجب عليه أنْ يوفيه، والوعيد حزم له فيه الخيار، ولكن أنْ يقترن بخلق الوعيد عذر حتى لا يهون وعيدك، ليكون نظام الهيبة به محفوظًا، وقانون السياسة به مضبوطًا»[(٢)].

واشترط الفقهاء في وزير التفويض: (الإسلام، والحريَّة، والعلم بالأحكام الشرعيَّة، والمعرفة بأمرَي الحرب والخراج).

واشترطوا في وزير التنفيذ: (الأمانة، وصدق اللَّهْجة، وقِلَّة الطمع، وألَّا يكون بينه وبين الناس عداوة أو شحناء؛ لأن العداوة تصدُّ عن التناصف، وتمنع مِنَ التعاطف، وأنْ يكون قويَّ الذاكرة، صاحبَ ذكاء وفِطنة، وألَّا يكون من أهل الأهواء؛ فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، فالهوى خادع للألباب، وصارف عن الصواب، وأنْ يكون صاحب حِنْكة وتجربة)[(٣)].

ولقد تطوَّرت الوزارة وأعمالها مِنْ عهد بني أُمَيَّة مرورًا بالعصر العباسيِّ، والمماليك،

---

(١) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده عن عائشة رضي الله عنها، ب: «مَا مِنْ رجلٍ مِنَ المسلمين ..» ح (٨٠٧).
(٢) «الماوردي» في كتاب الوزارة مِنْ ص (٣٤) وما بعدها - بتصرف-.
(٣) انظر: الأحكام السلطانية، لأبي يعلى الفراء، ص (٣١)، والمنهج المسلوك في سياسة الملوك، ص (٢٠٩)، لعبد الرحمن بن نصر العدوي الشيزري.

تطوُّرًا تنظيميًّا.

٣- الإمارة: ازدادت أهميَّة الإمارة باتِّساع الدولة الإسلاميَّة، وتمكين الفتوحات للإسلام في آسيا وأفريقيا وأوربا، ومِنْ ثمَّ عَوَّل خلفاءُ المسلمين على عدد مِنَ الوُلاة الأكْفاء لحكم وإدارة تلك الأقاليم.

وكان خلفاءُ رسول الله ﷺ يقلِّدون إمارة البلدان لقُوَّادِّهم الفاتحين، ويفوِّضون لهم صلاحيَّات واسعة حرصًا على مصلحةِ البلاد، ومع ذلك فقد ظلت العلاقة قويَّة بين هؤلاء الأمراء وبين الحكومة المدنيَّة.

والإمارة عند الفقهاء، إمارة عامَّة وإمارة خاصة. والأول على ضربين: إمارة استكفاء، وإمارة استيلاء.

ولكل واحدة اختصاصات وشروط يجب توافرها فيمن يلي هذه الإمارة على توسُّع في كتب الفقه والولاية.

٤- النظم الإداريَّة: كانَ لرسول الله ﷺ نظام إداريٌّ منظَّم يتمثَّل في:

- مجلس شورى مكوِّنٍ مِنْ «أبي بكر وعُمَر وسعد وغيرِهم».
- كما كانَ يَتَّخِذُ كُتَّابًا للمراسلات بينه وبين الملوك والحكام المجاورين، ومنهم عبدالله بن الأرقم، وغيره.
- وله كاتب للعهود، وهو **عليّ بن أبي طالب**.
- وله أمين وصاحب سرٍّ، وهو **حذيفة بنُ اليَمان**.
- وله قائمٌ على خاتمه، وهو **ابن عوف المري**، و**الربيع بن صيفي**.
- وله مَنْ يقوم على المداينات.
- وله مترجمون بالفارسيَّة والقبطيَّة والروميَّة والحبشيَّة والعبريَّة (كزيد بن ثابت) وغيره.
- واستعمل ولاة في شبه الجزيرة منهم: **عتَّاب بن أسيد** استعمله على مكة، و**معاذ**

obeikandl.com

ابن جبل أرسله قاضيًا على اليمن.

ـ وله رُسُل وسفراء إلى الملوك، فقد أرسل **حاطب بن أبي بلتعة** إلى المقوقِس، و**شجاع بن وهب** إلى الحارث الغسَّاني، و**دحيَّة بن خليفة الكلبي** إلى قيصر، و**سليط بن عمرو العامري** إلى هوذة بن علي الحنفي، و**عبد الله بن حُذافة السَّهمي** إلى كِسْرَى، و**عمرو بن أميَّة الضَّمري** إلى النجاشيِّ[1].

٥- الدواوين في عهد عمر ﷺ:

(ديوان للعطاء، وديوان للجيش، وديوان للاستيفاء - يُحدِّد مصادر الدخل ووجوه الإنفاق - وديوان للبريد، وديوان للتوقيع والمراسلات، وديوان للقضاء والنظر في مظالم الناس، ونظام للحسبة - الإنكار والرَّدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- وديوان للشرطة، وآخر للمجاهدين)، وكانت أهم مهامِّ أهل الحِسْبَةِ هي:

- الاهتمام بحقوق الله تعالى مِنَ العقائد والعبادات.

- الاهتمام بحقوق الآدميِّين؛ مِنَ الغِشِّ، والتدليس في الثمن، وبيع الغَرَر، وبيع المُصرَّاة، والخِزانة، والنَّجْش وغيرها.

- ما كان مشتركًا بينهما.

٦- النظام المالي والاقتصادي: تُعَدُّ كتب الخراج والأموال مِنْ أوائل المصنفات الاقتصاديَّة التي عرفتها المدارس الفقهيَّة والتاريخيَّة في العالم، حيث وضع الفقهاء أصعب وأدقَّ الأعمال الفِكْريَّة، وقدَّموا خدمة جليلة للإنسانيَّة، ووضعوا بين أيدي الحكام الإجمال والتفصيل للأحكام المتعلِّقة بالمال والاقتصاد، مستنبطة من كتاب الله ﷻ، وسُنَّة نبيِّه ﷺ، بهدف تعريف الناس بحقوقهم، ودفع الظُّلم عنهم.

فاستطاع هؤلاء الفقهاء توظيف الفقه في هذا المجال لخدمة التأريخ والإنسانيَّة.

---

(١) كتاب «تاريخ الرُّسُل والملوك» للطبري (٢/ ٦٤٤).

ومِنْ أهم الكتب في هذا المجال:

- كتاب «**الخراج**» للقاضي أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم (١١٣- ١٨٢هـ).
- كتاب «**الخراج**» للشيخ أبي عبيد الله القاسم بن سلام (١٥٧- ٢٢٤هـ).
- كتاب «**الأموال**» لأبي أحمد بن زنجويه (١٨٠- ٢١٥هـ).
- كتاب «**الأحكام السلطانيّة**» للفقيه أبي الحسن علي محمد بن حبيب البصريِّ البغداديِّ الماورديِّ (في منتصف القرن الخامس الهجريِّ).
- كتاب: «**شذور العقود في ذكر النقود**» للمَقريزي، وكتاب «**النقود والموازين والمكاييل**» للمناوي، وكتاب «**الأنظمة الماليّة الإسلاميّة**» للطبري.
- وفي «**مقدّمة ابن خلدون**» يشير إلى المعاش ووجوبه مِنَ الكسب والصنائع، ويذكر التجارة والأموال وتنميتها، والربح والعرض والطلب، وأثره في انخفاض أو ارتفاع الأسعار.
- كما أسهم الرَّحالة والجغرافيُّون المسلمون فيما سجَّلوه مِنْ وقائع وملاحظات بمادة علميَّة ثريَّة عن أوضاع المال والاقتصاد في تلك البلدان.

لقد وضع المُفَكِّرون المسلمون الأوائل قواعد فكرٍّ اقتصاديٍّ، استمدُّوا أصوله مِنَ الكتاب والسُّنَّة؛ حيث احتوت على الأطُر العامة وبعض التفصيلات الدقيقة الخاصة بالزكاة والصَّدقات والغنائم والجزيَّة، وفي هذا يتأكَّد حرص الإسلام على نظام اقتصاديٍّ واضح، واستطاع المسلمون أن يطوِّروا ويُضيفوا إبداعات اقتضاها الواقع، وألَّحت بها الضرورة، وذلك عندما كانت العقليَّة خلَّاقة قادرة على الإبداع والعطاء، وارتبط تقصير الأمَّة في نظامها الاقتصاديِّ البديع والفريد مع تقصيرها في أمور العقائد والعبادات، وتشتُّت الأمَّة فرقًا وجماعاتٍ وأحزابًا بعد أن أُسقِطَتْ خلافتهم، وزالت دولتهم ووحدتهم.

٧- النظام الاجتماعي: نَظَّمَ الإسلام حياة الفرد وحياة الأمَّة ليبنيَ مجتمعًا متوازِنًا صحيحًا مِنَ العِلَل والأمراض والعُقَد والخَلَل.

أقام مجتمعًا منح الإنسان فيه حريَّة العقيدة والعبادة، وحرَّره مِنَ العبوديَّة إِلَّا لله وحده، لا يخشى أفرادُه إِلَّا خالقَهم سبحانه وتعالى.

أقام هذه البنية الاجتماعيَّة على أساس مِنَ المفاهيم والأخلاق والقيم والمبادىء تميَّز بها، وحافَظَ عليها حتى استمرَّت كما هي حتى يوم الناس هذا.

وتتجلَّى عبقريَّة الإسلام في نظمه الاجتماعيَّة التي نجحت في مواجهة النظم والأعراف والتقاليد المتوارثة، فعدَّلها وغيَّرها ما لم تتوافق مع أنظمة الإسلام ليستقرَّ نهائيًّا ما نزل به الشَّرع الحكيم، ويتطهَّر مجتمع شبه الجزيرة العربيَّة مِنَ الفساد الذي استشرى في بنيانه، وترسخ الدعائم الاجتماعيَّة الجديدة بما يكفل العدالة الاجتماعيَّة، ويحترم العقل، وتقدَّر الجوانب الماديَّة والروحيَّة للإنسان.

قضى الإسلام منذ أول وهلة على العنصريَّة والعصبيَّة، وأقرَّ الأخوَّة الإيمانيَّة التي لا مكان فيها للون أو جنس. أقرَّ الرسول ﷺ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المدينة النَّبويَّة لتقوم الأمَّة في أروع اتحاد وتناسق وتآلف يمكن أن يوجِدَه نظامٌ اجتماعيٌّ آخر.

حلَّت الأخوَّة الإيمانيَّة مكان العصبيَّة القبليَّة، وكانَ التكافل الاجتماعيُّ في أروع صورة، فشُرِعَت الزكاة فريضة وتطهيرًا وتزكيَّة للنَّفس والمال، ولتؤكد الصِّلَة المستمرة بين أفراد الأمَّة، والتي يظهر فيها شعور التكافل والتضامن والتعاون لتتحقق الحقيقة الخالدة: **أمة واحدة كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضُها بعضًا**.

• وتتَّضح عناية الإسلام الحقيقيَّة بالمجتمع في اهتمامه بالأسرة وملائمته للفطرة، ليسموَ بذلك على سائر الخلق، ولتبرز التوازن الاجتماعيّ والنفسيّ.

فأمر وشجَّع على النِّكاح وأقرَّه بإيجاب وقبول (دون إكراه)، وباستئذان ولي الأمر ليصون للمرأة كرامتها، ويحفظ لها منزلتها وحقوقها في المجتمع، وليتحقَّق السكن والمودَّة والرحمة والأُلْفة، وناسق ووازن الإسلام بين الحقوق والواجبات بقواعد محكَمة.

قال تعالى: ﴿ **وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ**

فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٨﴾ [البقرة].

وكفَل الإسلام للأسرة الحياة الكريمة، وقدَّم لهم ما يجب مِنَ التربية والرعاية والإنفاق والمسئوليَّة، وجعل الرجال قوَّامين على النساء لحماية ورعاية وتدبير أمور الأسرة، والإنفاق عليها، وحلّ معضلاتها.

وجعل هذه الرابطة (الزواج) رابطة مقدَّسة سَما بها الإسلام حين جعل قاعدتها السكن والمودَّة والرحمة، لتتحقق بذلك الطمأنينة والاستقرار.

قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الروم].

وحدَّد الإسلام الخطوات التي تُنهِي العلاقة الزوجيَّة؛ فشرع الطلاق علاجًا لمشكلات يستعصي حلُّها، ويحفظ كرامة المرأة والرجل على السواء، وحرَّم العَضْلَ للنساء، والظهار والإيلاء.

والطلاق في الإسلام تنزيل مُحْكَم يخدم المرأة والرجل، قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وشرع مع الطلاق العِدَّة، وجعل لها أحكامًا في الرَّجْعَةِ، وأحكامًا إذا انقضت العِدَّة.

وأكد الإسلام على الإصلاح والعفو، وجعله أقرب للتقوى، وأمر بعدم نسيان الفضل بينهم، والاحتفاظ بالرابطة الإيمانيَّة حتى بعد الطلاق، وجعل الإمساك بالمعروف والتسريح (الطلاق) بالمعروف والإحسان، وبيَّن أنْ المؤمن لا يفرك (يبغض) مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر.

• وهذا القانون القرآني يؤكِّد على احترام المرأة في موقف عسير مثل هذا، فيصون كرامتها بحدود الله ﷻ التي شرعها، ولم يفرِّق الإسلام بين الأبناء والبنين في الهِبَة والعطيَّة، وفسخ كل عادات الجاهليَّة، وأقرَّ حقوقَهنَّ وأمر بتوقيرهِنَّ وتأديبهنَّ وتعليمهنَّ الدِّين، وصانَ كرامتهنَّ وحفظ حقوقهنَّ في الزواج والميراث، إلى غير ذلك مِنَ الحقوق.

• ووضع الإسلام قواعد للميراث ضمِن بها حقَّ كلِّ ذي حقٍّ فيه، ولا يتم توزيع التركة إلا بعد النظر في الدَّين والوصيَّة، والأسس التي وضعها الإسلام في توزيع الميراث واضحة، وتؤكِّد عدالة الدِّين وصلة النَّسَب، بما يؤكد تفرُّده وتميُّزه عن غيره مِنَ الأديان والأنظمة والقوانين القديمة والحديثة.

وشرع الإسلام تعدُّد الزوجات، وأقامها على العدل، والقدرة على الإنفاق، وذلك بما يناسب طبيعة الرجل والمرأة، وتقتضيه الطبيعة والحاجة.

والتعدُّد يقدِّم حلولًا لمشكلات المجتمعات الاجتماعيَّة الكثيرة، ويقضي على الخيانة واتخاذ الأخدان.

٨- البيئة الفكريَّة: أتاح الإسلام المناخ الفكريَّ الذي مكَّن العلماء وأصحاب الفِكْر مِنَ الإسهام في إثراء الحضارة الإسلاميَّة في كافة مجالاتها.

وقد قدَّم المسلمون عربُهم وعجمُهم ما بَهَرَ العالم مِنْ إنتاج فِكْريٍّ ونهضة علميَّة وأدبيَّة كبرى تشهد بها آدابُهم، وما فتحوه وقدَّموه للعالم من مجالات مبتكرة اعتمد عليها العالم الحديث بشكل مباشر.

ففنون العرب في اللغة والتاريخ والجغرافيا والأدب وسائر العلوم تظهر آثارها بشكل واضح وملموس فيما لحقها من تراث إنسانيٍّ.

• ويوضِّح **الفارابي** في «**تحصيل السعادة**» عوامل ومقوِّمات تقدُّم الأمم وازدهارها:

أولها: العلم. **ثانيها**: قوَّة الأفكار. **ثالثها**: الفضائل الخُلُقيَّة.

٩- النظام العسكري: التحدِّيات التي كانت تواجه الإسلام مِنْ بدايته كانت قويَّة

وعتيدة وعنيدة وكثيرة، منها: عِنَاد وخصومة وعداوة المشركين في قريش وقبائل العرب، والقوة العسكريَّة الغشيمة لدى الفُرْس والرُّوم.

وكانَ أمام المسلمين الأوائل مهمة تبليغ الإسلام، وتعريف الناس به. لذلك أذن الله تعالى لنبيِّه بالقتال[1]، ولمواجهة العدوِّ وحماية الإسلام، وما كانَ ذلك الإذن إِلَّا بعد أنْ ظُلِموا وعُذِّبوا، وأُخرِجوا مِنْ ديارهم بغير حقٍّ.

ثم كان الأمر بالقتال حتى يكون الدين لله، وانقسم الكُفَّار بعد أمر الجهاد إلى ثلاثة أقسام: (**أهلِ صُلْحٍ وهُدْنة، وأهلِ حربٍ، وأهلِ ذمَّةٍ**)، وظهر النِّفاق والمنافقون فأمر الله رسوله أنْ يقبل منهم ما يعلنون ويترك سرائرهم، وأن يجاهدهم بالعلم والحُجَّة.

• وضعَ النَّبيُ ﷺ الأسُس الاستراتيجيَّة التي ميَّزت النُّظُمَ العسكريَّة في عهده ﷺ.

- نظَّم صفوف المجاهدين واتَّخذ غرفة للقيادة، واستخدم طريقه الزَّحف المتراصَّة.

- اتَّخذ مجلسًا لشورَى الحرب، وإمْرَة الجيش.

- عقد الألوية وفرق الاستطلاع، وقسَّم الجيش إلى (قلب ومقدمة وميمنة ومسيرة ومؤخِّرة).

- رَسَمَ الخُطَطَ العسكريَّة، واستخدم الحرب النفسيَّة.

- طوَّر في التحصين، وعمل الخنادق الحربيَّة، وكانَ يقود الجيش بنفسه ﷺ.

• **واستخدم المسلمون أسلحة منها:** السيوف والرماح والأقواس والأسهم والدروع والخوذات (البيضة)، والمغافر (وهي ما يلبس تحت القلنسوة) والخيل والإبل.

ـ ثم طوَّروا أسلحتهم واستخدموا المجانيق والعرادات والدَّبابات البِدائيَّة.

---

(١) ولم يكن بِدَعًا من الرُّسل في ذلك، فقد قاتل داود عليه السلام، وقَتلَ جالوت، وقاتل موسى عليه السلام، ودعى بني إسرائيل للقتال للدخول إلى الأرض المقدَّسة، وكذلك أرسل سليمانُ عليه السلام، لملكة سبأ يُهدِّدها بجنود لا قِبَلَ لهم بها. وانظر: كتاب: «لا تؤمِّلوا» للمؤلف يرحمه الله.

ـ وقام المسلمون بعمل التنظيمات العسكريَّة، فأنشأوا للجُند ديوانًا يهتمُّ بأمورهم وأُسَرِهِم.

ـ وقام النظامُ العسكريُّ في الإسلام على أُسُس ومبادىء وقِيَم لم يعرف العالم نظيرها: مثل الإنذار قبل الغزو ثلاثًا، والتخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال، والنهي عن قتل الأطفال والشيوخ والعبَّاد والنساء (غير المحارِبات)، والنهي عن قطع الشجر أو تخريب الزرع، أو الغلول في الغنيمة، وإكرام الأسرى وعدم قتلهم أو تعذيبهم، وقبول الفِدْية فيهم، وإجارتهم، وعرض الإسلام عليهم.

وإنْ جَنَحَ الأعداء إلى السَّلْم قبلوه، وإنْ خانوا العهود عاقبوهم وانتقموا منهم.

ومع ما ذكرنا فإن بعض النظم قد نهجت وتطورت بشكل أو بآخر في ظلِّ نظام ديمقراطيٍّ تم تطويره وتحديثه وتعديله ليلائم موقعهم الجغرافي والتاريخ والعادات والتقاليد، ومِنْ هذه الدول: (إندونيسيا، ماليزيا، تركيا)، أخذت ما في الديمقراطيَّة مِنْ خير ونفع، والحقُّ يُقال: إن كثيرًا مما في الديمقراطيَّة مِنْ منافع أغلبها مقتبَس مِنْ الإسلام، وتاريخ المسلمين العريق.

لذلك نقول في ختام هذا الباب: إنَّ الديمقراطيَّة ليست كلُّها شرًّا مستطيرًا، ولا خيرًا منيرًا، وليست نِعْمَةً أو نِقْمَةً، والذي يُحدِّد لنا ذلك هو الباب الثامن « **الحقوق، والواجبات** ».

❁❁❁

obeikandl.com

وقفة

بين الحقوق والفوضى

• حكَى بعض الثِّقَات أنه شاهد على موقع أمريكيٍّ على النِّت أحداث قَضيَّةٍ، المُتَّهَمُ فيها جنديٌّ أمريكيٌّ، شاهده وهو يَدْهَس مواطنًا أمريكيًّا بقدميه على الأرض بِعُنْف وقَسْوة، فتمَّ إحالة الجنديِّ للمحاكمة بِعِدَّة تُهَمٍ، وتولى الجنديُّ الأمريكيُّ الدِّفاع عن نفسه أمام هيئة المحكمة، قائلًا:

سيدي القاضي: إنَّ مِنْ حقِّ المواطنِ التَّظاهُرَ والاعتصام على الرصيف المُخَصَّص، وأنا موجود لخدمته ومساعدته طالما ظلَّ على الرصيف، وإن طال وقوفه، أمَّا كَوْنه ينزل إلى الشارع، ويعطِّل حركة السير والمرور فليس له إلَّا الحذاء يُدْهَس به.

وبعد المرافعة والمداولة والنِّقاش الحادِّ بين هيئة المحكمة صدر الحُكم بالإجماع: ببراءة هذا الجندي !

• أذْكُر هذه الحادثة لأوضِّح للشباب العربيِّ الذي يُراد به ما سمَّته وزيرة الخارجيَّة الأمريكيَّة (هيلاري كلينتون): «بالفوضى الخلَّاقة» في الدول العربيَّة الإسلاميَّة، فَيُصَدِّرون لنا مساوئ النظام ويحتفظون هُم بمزاياه.

• وذلك تصديقًا لقول أحد المستشرقين الألمان: « لقد استوردنا منكم فضائلكم، وصدَّرنا إليكم رذائلنا ».

❁ ❁ ❁

openkandil.com